اسم الدرس : تفسير سورة الحديد | الجزء الثالث

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، صلى الله عليه وسلم.

نكمل-بإذن الله- تفسير سورة الحديد، السورة سوف تأخذ أربعة مجالس بإذن الله تعالى، وهذا هو المجلس الثالث.

وقت الأزمات!

واضح أن السورة نزلت في وقت فيه أزمة، وفيه شدة، وقت الأزمات والشدة نحتاج إلى معانٍ معينة، والسورة أتت لنا بالمعاني التي نحتاجها في وقت الأزمة.

أول معنىً من المعاني التي يحتاجها الإنسان، ولا يصح أن يغيب عنه أبداً، والذي بدأت به السورة هو الكلام عن الله سبحانه وتعالى:

"سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3)"

وأن السبق في الإسلام يُحدَّد على معايير معينة منها البذل، "لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ "

الإنفاق والتضحية أثناء الأزمات، يرفع به اللهُ عز وجل الإنسانَ درجات، والبذل يكون نوراً يظهر في الأزمات، يكون نوراً لهذا الإنسان على الصراط يوم القيامة، ونوراً لغيره من المؤمنين.

وأيضًا قلنا في الأزمات يتضح المؤمن من المنافق، وجاءت الآيات التي تكلمت عن خذلان المنافقين يوم القيامة وفضيحتهم، وقلنا أن المؤمنين عندهم بصيرة يرون بها المنافقين وهم يسقطون في الهاوية.

وأن المنافق عندما يسقط في الهاوية لا يسقط مرة واحدة، وإنما يمر بمراحل، "وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ".

أَلَمْ يَأْنِ؟!

وبعد ذلك توقفنا عند قول الله عز وجل: "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ"

أغلب المفسرين يقولون أن الخطاب هنا لأهل الإيمان، وأن هذا عرفان من الله عز وجل لأهل الإيمان، أوبتعبير بعض السلف (**استبطاء من الله عز وجل لأهل الإيمان**)، استبطأ الله أهل الإيمان كيف لم يحققوا هذه المرحلة من الخشوع بعد هذه المدة!

بعض المفسرين قال: هذا خطاب للمنافقين كالآيات التي سبقتها " أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ".. آمنوا بالله، لكن آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، وكأنها دعوة من الله عز وجل للمنافقين أن يلتحقوا بركب أهل الإيمان.

ولكن –مثلما قلنا–أن الخطاب موجه للمؤمنين الذين أصابهم الفتور" أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ "، استبطاء.

"يَأْنِ" من الأوان، أو من الحين، غرضها الاستفهام، ألم يحن الوقت بعد؟ لماذا لم تفعل كذا إلى الآن؟ كيف لم تخشع بعد كل ما سمعت من القرآن؟! كيف لم تصل بعد لمرحلة الخشوع بعد كل المجهود الذي بُذِل من النبي صلى الله عليه وسلم وكثير من الصحابة! كيف لم تحققوا مرحلة الخشوع بعد!

وبعض المفسرين قال: " يَأْنِ " من النضج، كيف لم تصلوا للنضج بعد!

هناك مرحلة من الالتزام عندما يبلغها الإنسان، يصل لمرحلة نضج إيماني، عندما يسمع القرآن قلبه يخشع، إذا مكثت فترة طويلة ولم تمر بهذه المرحلة، فهناك عتاب ينزل.

في صحيح مسلم عن ابن مسعود –رضى الله تعالى عنه– قال: (ما كان بين إسلامنا وبين ما عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين)، العتاب نزل بعد أربع سنوات للمؤمنين على مسألة الخشوع، بمعنى أنك لو مر على التزامك أربع سنوات ولم تحقق هذه المرحلة، فإنك تُعاتب، لأن هناك تقصيرًا منك. عندما نعاتب شخصًا ملتزمًا نقول له: لماذا لا تجتهد في الالتزام؟ **فما هي مقاييس تقييمنا له في الاجتهاد؟**

يقول الله عز وجل" تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ "‥ العتاب موجه للقلوب، أربع سنوات ولم يصل القلب بعد لهذه المرحلة من الخشوع! لابد أن نعاتب أنفسنا هذا العتاب، عندما تمر فترة من الزمن وقلوبنا لم تخشع في الصلاة وقيام الليل، إذًا هناك مشكلة، هناك خطأ ما.

طبيعي أن هذه المرحلة لا تتحقق من أول يوم، ولا من أول شهر، ولا من أول سنة، لابد من مجهود يُبذل، لا ينبغي أن تكون هذه السنة كالسابقة، لا ينبغي أن تكون علاقتك بالقرآن في رمضان هذا العام مثل العام الماضي، قلبك في صلاة التراويح هذا العام مثل العام الماضي! إذًا أنت تُعاتَب، والآيات تنزل لعتابك، كل عام يمر عليك أهم ما تُعنى به هو قلبك، لابد أن يحقق قفزة للأمام، وهذه القفزة تكون من ناحية الخشوع.

كيف يكون الخشوع؟

والخشوع يكون مع ذكر الله وما نزل من الحق، إذًا قضية القرآن هي التفاعل الإيماني بين القلب والقرآن، إذا لم يحدث هذا فلديك مشكلة، السؤال هل يحدث تفاعل إيماني بينك وبين القرآن؟ عندما قال النبي – صلى الله عليه وسلم– حديث (مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به مِنَ الهُدَى والعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أصابَ أرْضًا، فَكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وكانَتْ مِنْها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بها النَّاسَ، فَشَرِبُوا وسَقَوْا وزَرَعُوا، وأصابَتْ مِنْها طائِفَةً أُخْرَى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذلكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللَّهِ، ونَفَعَهُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ)[1]

[1] صحيح البخاري

المثال الأول الذي أثنى عليه الله عز وجل كان منها أراضٍ أنبتت العشب والكلأ، تفاعل الماء الذي نزل من السماء مع الأرض التي أنبتت العشب والكلأ، **هذا التفاعل يجب أن يحدث بين القلب والقرآن**، لابد أن ينبت معنى الإيمان، لو لم يحدث فلابد أن نعاتب أنفسنا.

قلنا أن بعض المفسرين ذكر عن ابن مسعود في صحيح مسلم أن هذه الآية نزلت بعد أربع سنوات من إسلام الصحابة، وبعضهم قال أنها نزلت في المدينة.

حال الصحابة وقت نزول الآية

في مكة كان الوسط كله ضنك، كله تعذيب، فالصحابة كانوا يعيشون دائمًا في جو الإيمان والبذل، ولما هاجروا إلى المدينة وانشغلوا بالتجارة وبدأت الأموال تتدفق، وأصبح الوضع مستقرًا، بدأ الخشوع يخفت، بدأوا ينشغلوا بالحياة العامة، فعاتبهم الله عز وجل.

بعض الروايات –وكلها عن السلف– أنه كَثُر بينهم المزاح والضحك، وكثر بينهم الكلام في التجارة، ونسوا الجهاد فعاتبهم الله عز وجل.

ما الذي يجعل القلب قاسياً؟

مرحلة الأزمات يمكن أن تُقسي قلب الإنسان، وهذه إجابة لسؤال يتكرر: هل الأزمة تجعل قلبي قاسيًا أم الرخاء؟ **الذى يجعل قلبك قاسيًا هو البعد عن مواعظ القرآن**، سواء في الأزمات أو في الرخاء، لأن في وقت الأزمات كثرة الانشغال بالأسباب والمسببات وهل نفعل كذا أم كذا؟ وماذا سيحدث؟ فتنصرف عن الله، قلبك يكون قاسيًا. وفي فترات الرخاء الدنيوي وانشغالك بالدينار والدرهم والمستقبل الدنيوي، ونسيان المستقبل الأخروي يجعل قلبك قاسيًا أيضًا، هنا ربنا سبحانه وتعالى أخبرنا أن أكثر سبب يجعل قلبك قاسيًا "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ(16)"

ماذا أوتوا؟ " أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ " كان عندهم كتاب، مثلما نحن عندنا قرآن، كان عندهم كتاب؛ سواء توراة أو إنجيل " أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ" فاء التعقيب، " فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ "، إذًا ((**أهم سبب لقسوة القلوب طول الأمد بعيدًا عن كتاب الله**)) "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ".. أي فطال عليهم الأمد بعيدًا عن مواعظ كتابهم، إذًا حينما تمكث فترة طويلة بعيدًا عن القرآن يقسو قلبك... حينما تُسأل متى آخر مرة سمعت آية أثرت فيك؟ آخر آية وأنت وراء الإمام سمعتها فبكيت، وظللت ترددها طوال الطريق من المسجد إلى البيت، ثم لما دخلت البيت يسألك الجميع ماذا بك؟! فقرأت عليهم الآية... متى حدث ذلك؟ لن أقول لك متى آخر مرة حدث ذلك؛ بل هل حدث ذلك أصلًا معك؟!

إذًا التفاعل مع مواعظ القرآن يُنبت العشب والكلأ، و يُنبت المعاني، وأهم معنى ينبت هو الخشوع، وهذا هو أهم غرض لنزول القرآن "لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" الحشر, إذًا أهم غرض لنزول القرآن على القلوب هو تعزيز الخشوع لله بسبب التأثر بمواعظ القرآن.

إذًا عندما تمكث فترة طويلة من الزمان وأسألك آخر آية أثرت فيك متى؟ ولا تجد جوابًا فهذه مشكلة، حتى لوعندك بعض معاني الإيمان ستضعف إذا لم يكن هناك اتصال مباشر بين قلبك وبين القرآن، قلبك سيصيبه القسوة، قلبك لابد سيسقط في مسألة القسوة، إذًا الحل للخروج من قسوة القلوب اتصال القلب بمواعظ القرآن، أن نتعرض لمعاني القرآن، من غير هذا قلبك سيصبح قاسيًا.. " أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ".. القلب كثير التقلب والإنسان كثير النسيان " وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا" طه, حينما تمكث فترة طويلة لا تسمع عن الجنة والنار ولا معرفة الله تبارك وتعالى، قلبك سوف يقسو رغمًا عنك، لو لم تسمع باستمرار عن الدار الآخرة ومعرفة الله، ولم تقرأ القرآن، مهما قلت أن قلبك لن يقسو وأنك تتذكر الموت، فصدقني بعد فترة من الزمن سيقسو قلبك رغمًا عنك، هذا شيء تلقائي، والآية تؤكد ذلك "فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ" **ما الذي قسا؟ من هو الفاعل؟**

"**القلوب**"! إذًا هو لم يتحكم في قلبه، لم يتعمد جعل قلبه قاسيًا، هو ماذا فعل؟ لم يفعل شيئًا، وإنما فقط طال عليه الأمد فقسا قلبه.

قال تعالى "وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ" أصبح فاسقًا لأنه ترك نفسه فترة طويلة لا يسمع القرآن، إذًا من يظل فترات طويلة "فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ" -*قالوا الأمد هو الزمن الطويل*-في غفلة طويلة لا يسمع القرآن يقسو قلبه، وهذه هي مراحل الانتكاس .

الفرق بين "آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ" وبين " أُوتُوا الْكِتَابَ "

"أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ "..كلمة " أُوتُوا "، ابن القيم كان له تعليق رائع في الفرق بين قول ربنا عز وجل "آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ" وبين " أُوتُوا الْكِتَابَ "؛ يقول: كلمة " أُوتُوا الْكِتَابَ "نُسبت لغير الفاعل، أي مبنية للمجهول، لكن عندما يقول الله عز وجل "آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ" تشعر أن الله عز وجل يمنحك، لأنه هنا قد نسب الفعل لذاته سبحانه، لكن عندما يُنسب الفعل لغير الفاعل " أُوتُوا الْكِتَابَ " في الغالب تأتيفي موضع ذم، فكأنها هنا "أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ" فيها معنى الوراثة، ورث الكتاب من غير أن يتعب فيه، لم يكن هناك اتصال بالله عز وجل أثناء تلقي القرآن، **إذًا هو معاتَب**:

- أولًا لأنه تعامل مع القرآن تعاملًا باهتًا "أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ"
- ثانيًا لأنه مضى فترة طويلة سواء مُعرض، أو بالتعامل الباهت مع القرآن، هذه مبهمة.
- ثالثًا بدأ يشعر أن قلبه قاسٍ.

هذه هي دركات الوقوع، ولا يستطيع أيإنسان أن يهرب منها، مثل أن تمضي عليك فترة لا تأكل فستجوع فإذا لم تأكل ستموت هذه مراحل البعد عن الأكل، هناك أيضًا مراحل البعد عن المواعظ وعن القرآن، هذه مراحل ثابتة، هذه سنن!ولا يهم إن كانت لحيتك طويلة أم قصيرة، ولا أن تكون تعرف أشخاصًا صالحين أو لا تعرف، هذه سنن! أي إذا كنت صاحب أكبر مطعم ولم تأكل ستجوع، وإذا لم تأكل فترة أطول ستموت، هذه سنن، ليست بالمعارف، (و مَنْ أبْطأَ بِهِ عملُهُ لَمْ يُسرِعْ بِهِ نَسبُهُ)[2] فالذي يظل فترة بعيدًا عن القرآن سيقسو قلبه، وإذا قسى قلبه ولم يعالجه سيصبح فاسدًا، هذه سنن وهذه دركات الوقوع.

[2] صححه الألباني

توجد آيات وأحاديث كثيرة في موضوع أن الإنسان عندما يبعد يسقط درجة تلو الدرجة،كما في قول ربنا عز وجل: "وَكَأَيِّن مِن نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيّونَ كَثيرٌ فَما وَهَنوا لِما أَصابَهُم في سَبيلِ اللَّهِ وَما ضَعُفوا وَمَا استَكانوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصّابِرين" **آل عمران**

هذه الآية في سورة آل عمران، وقول النبي –صلى الله عليه وسلم– في حديث حذيفة المشهور(أنَّ الأمَانَةَ نَزَلَتْ في جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نَزَلَ القُرْآنُ، فَعَلِمُوا مِنَ القُرْآنِ، وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ، ثُمَّ حَدَّثَنَا عن رَفْعِ الأمَانَةِ قالَ: يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأمَانَةُ مِن قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأمَانَةُ مِن قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ المَجْلِ..)[3].. ما معنى هذا الكلام : (يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ)أي يغفل الغفلة، يظل مشغولًا بالدنيا، يغفل الرجل الغفلة، الغفلة الواحدة ترفع جزءًا من الإيمان، (يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأمَانَةُ مِن قَلْبِهِ) الإيمان لماذا يرفع؟ لأنه لم يشكر نعمة الإيمان فيرفع الإيمان من قلبه، (فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الوَكْتِ)

الوكت: اللون الباهت، يصبح الإيمان باهتًا!

لم ينتكس بعد لكن أصبح التزامه باهتًا،وهذا أخطر أمر في كلمة "فطال عليْهِمُ الْأمدُ"،أن الدين في حياتنا يصبح باهتًاباردًا، بعد ما كانت عندك همة وصلاة الفجر تستيقظ قبلها مبكرًا، والدرس تحضره مبكرًا، وكنت تحافظ على الصيام، وكنت لو فاتتك تكبيرة الإحرام تظل متكدر طوال اليوم، وكانت قضايا المسلمين مشتعلة في قلبك، كنت عالي الهمة، كان إيمانك مشتعلًا، الآن تجد النقاشات تظهر؛ يتناقش هل صلاة الجماعة فرض أم سنة؟ أنا سمعت أنها سنة –المقصود طبعًا في غير النقاشات العلمية– لا تظهر من الناس غير في وقت الفتور، إيمانه يصبح باهتًا "طال عليْهِمُ الْأمدُ" أسوأ شيءأن الدين بعد ما كان مشتعلًا في القلب ودائمًا مستحضر منظره وهو يصلي في المسجد الأقصى ويتمنى الحلم يتحقق، مستحضر ويتمنى أن ينتشر الدين في كل أنحاء الأرض، دائمًا يحلم أن يستعمله الله في نصرة الدين، أحلامه وأمانيه وطموحاته كلها لدين الله، بعد ذلك، مع طول الوقت هذه الأشياء تذوب، لا يوجد ضمان أن المعاني إذا غرست في القلب مرة ستظل فيه إلى يوم القيامة ولن تخفت.. لا.. هذه المعاني كما غرست، ممكن أن تُرفع من قلبك (ينام الرجل النومة فترفع الأمانة).

[3] صحيح مسلم

احذر!

أخطر شيء أن معنىً إيمانيًا أنت تعبت فيه وغرسته في قلبك يرتفع، احذر من التعب في غرس معنىً – مثلًا طول شهر رمضان تزرع الخشوع أو التواضع أوالإخبات–معنى تعبت فيه، أو تذهب لأسر فقيرة ومساكين تطعمهم، احذر بعد ما تتعب في غرس معنى إيماني أن تغفل عنه، فيُنزع منك لأنك لم تشكر هذاالمعنى الإيماني!

(يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِن قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ) هذا أخطر أمر؛لأن المفروض عندما يُرفع جزء من الإيمان تصرخ وتبكي، فإذا فاتتك صلاة الفجر يومًا ما، وهذا وارد.. كل الناس ممكن أن تمر بهذا الموقف، الصحابة مرّوا بهذا الموقف، وإن فاتتك في اليوم الثاني فذلك وارد أيضًا، لكن أن تفوتك لثالث يوم تكون هناك مشكلة، وأن تفوتك لسبع أيام متواصلة هناك إشكالية ضخمة، وأن تفوتك لمدة أسبوعين اعلم أن الإيمان يُرفع، المفروض مع أول مرة كان يُرفع منك الإيمان كنت تبكي،تتصرف، تنام في المسجد، تنام على الأرض...تفعل أي شيء.

خطوات الانتكاس!

الذي له عادة قيام الليل، النبي –صلى الله عليه وسلم– قال:

(يا عَبْدَ اللَّهِ، لا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ كانَ يَقُومُ اللَّيْلَ، فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ[4]) احذر أن يكون لك طاعة وتتركها، رجعت وأنت متعب ذات يوم،وفعلترمعصية، وإيمانك ضعف ونمت ولم تصل القيام،استغفر وتب وثاني يوم عُد إلى قيام الليل، اليوم الذي يليه انشغلت في الكلام مع الناس،ولم تستطع الاستيقاظ وفاتك القيام، وفاتت خمس أيام متتالية من غير قيام الليل، مصيبة... مشكلة،طول الأمد: إذا مر عليك طاعة معينة ومرت عليك خمسة أيام لم تؤدها بعد ذلك سيكون الأمرعاديًا...وتبدأ خطوات الانتكاس...

فاليوم الأول لو فاتتك صلاة الفجر تبكي، وتذهب إلى عملك منزعجًا، وأنت لا تتوقع أن يمر اليوم على خير، ثاني يوم تفوتك تكون أهدأ قليلًا، ثالث يوم...خامس يوم ماذا أفعل؟؟

[4] صحيح البخاري

اليوم الخامس عشر تضبط المنبه على الساعة السابعة صباحًا؛ أنا في كل الأحوال لا أستيقظ للفجر... وهنا تبدأ النهاية!

احذر عندما يُنزع منك أو يرفع منك جزء يمر هكذا، احذر أن تتركه، اصرخ! ابكِ بكاء الطفل الذي عندما يؤخذ منه شيء يظل يبكي، احذر أن تسكت عندما ينزع منك الإيمان، احذر أن تسكت، ابكِ!

أخطر شيء أن يصبح الإيمان باردًا في قلبك؛ هذا الوهن، **أول سبب من أسباب الانتكاس الوهن** " كَثِيرٌ فَما وَهَنوا لِما أَصابَهُم في سَبيلِ اللَّهِ وَما ضَعُفوا وَمَا استَكانوا "

الوهن= حب الدنيا وكراهية الموت

" إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي " العظم هو الذي يحمل الجسم، الوهن هو أن القوة المعنوية للإيمان تبدأ في الانتهاء، كل واحد بداخله حماسة دينية، الله يمنّ علينا في أول الالتزام بأن تكون مشتعلًا، لابد أن تبدأ في البحث عنها، احذر أن تتركها تضيع منك، " فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ "، احذر أن يظن إنسان أنه بعيد عن مرحلة الفسق، " **وَنَفْسٍ** وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا "كل إنسان بداخله فجور، وبداخله تقوى، بداخله الفسق، إذا ترك نفسه سيقع في الفسق، " وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ "

ما هو العلاج؟

ولو فرضا وصلت لهذه المرحلة، سواء المنافقين الذين فتنوا أنفسهم وتربصوا وارتابوا، أو المؤمن الذي طال عليه الأمد، وقسى قلبه، ووصل لمرحلة الفسق، ماذا يفعل؟؟ ماذا قال لهم ربنا سبحانه؟؟ قال " اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا" **يوجد أمل، أبشروا**، الله عز وجل القادر على أن يحيي الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي قلبك بعد ما مات، ليس فقط بعد ما أصبح قاسيًا، إنما بعد أن مات، ليس فقط القلب قاسٍ، إنما –والعياذ بالله– مات تمامًا، لكن الله قادر أن يحييه مرة ثانية، والذي أحياها أول مرة يحييه مرة ثانية، " اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا "

عندما يقرأ أي شخص " أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا " –خاصة وأن الصحابة عوتبوا بهذه الآية– فأنت أيضًا لست بعيدًا عن العتاب، بالعكس فالإنسان ممكن أن يحبط، ويقول لا يوجد أمل، أنا قلت لكم من قبل

لا يوجد أمل، لكن ماذا قال ربنا؟ " اعْلَمُوا " هذا شيء لابد أن يُعلم ويُتدارس ويُنْصح به الناس، " اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا "! آية جميلة جدًا،

آية كلها أمل، وأنت تنظر إلى منظر المطر وهو ينزل على الأرض، وبعد ما كانت طينة جرداء ليس فيها أي شيء، وبعد ذلك تبدأ الثمار في الخروج، قلبك هكذا من الداخل دائمًا تشفيه مواعظ القرآن والسنة، فالله عز وجل الذي أنزل الماء على الأرض فأحياها، ينزل القرآن على القلب فيحيي القلب، فكأنما هنا الآيات كلها تقول لك:

((السبب الرئيسي في البعد عن قسوة القلب هو القرآن))

" أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أن تخشع قلوبهم"، لماذا؟ " لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ "، الذي هو القرآن، والسبب الرئيسي حتى لا تصل لمرحلة القسوة، هو القرآن، ولو فرضًا وصلت لمرحلة القسوة، السبب الرئيسي لترجع هو أيضا القرآن، هو المانع عن القسوة وهو الذي يزيل هذه القسوة، " اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قد بيّنا الآياتِ لقومٍ يعْقلون"

تفاعل القلب مع القرآن تفاعل عملي، ماذا يعني ذلك؟؟ القلب يتفاعل مع القرآن فينتج للبدن أعمالًا، بينم انوع التفاعل مع القرآن الذي لا ينتج أعمالًا صالحةهو تفاعل كاذب.

الآية التي تليها ماذا تقول؟ "إن المصَّدّقين والمصَّدّقات وأقرضوا الله قرضًا حسنًا" هذه قراءة حفص عن عاصم، **دائمًا هناك إنفاق، وهناك بذل،**

توجد قراءة ثانية لابن كثير.

رواية أبي بكر عن عاصم وقراءة ابن كثير، الاثنين قرأوا: "إن المصَدِّقين والمصَدِّقات" بتخفيف الصاد، أي: **من التصديق،** نحن قلنا أن وقت الأزمة لا يَبذل إلا مَن؟ إلا مُصدِّقٌ مُوقِنٌ، إلا مُصدِّق يملك يقينًا، إنسان يملك يقينًا؛ لأننا قلنا أن في الأزمات أغلب الناس يستسلم، يقولون: ليس هناك أمل، الموقِن هو الذي ما زال يُكمِل.

في قول الله –عز وجل– في سورة الليل عندما تكون الدنيا ظلامًا " وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى " ربنا يقول: "فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى " وماذا؟ "وصدَّق" يجب أن يكون مُصَّدِقًا.

إذًا هنا "إن المصَدِّقين والمصَدِّقات" أي أنه بالرغم من كل الأزمات إلا أنه ما زال مُصدِّقًا أن الدين سينتصر، بالرغم من كل الصراعات إلا أنه مُصدِّقٌ أن الدين سينتصر.

لذلك حتى لا تُسبب الأزمة جفافًا روحيًّا، وللأسف نرى في هذه الأيام حالة جفاف روحي، هناك حالة من الكلام في أشياء ليس لها قيمة، الناس تتكلم في أي شيء؛ تريد أن تُسلِّي عن نفسها، لكن التسلية عن النفس تكون بمواعظ القرآن والسنة.

أحد التابعين –أظن أبو ذر– كان ابنه قد مات، كان يبكي وكان حزينًا عليه، فكان يسأل: ألا تَعلَم حديثًا عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أُسلِّي به عن نفسي؟

"وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ " قالوا: هذه الآية يُمكن أن تُقرأ هكذا بالوقف على كلمة "الصِّديقون"، أو بالوقف على "الشهداء عند ربهم".

هذه الآية اختلف المفسرون فيها هل نقف عند كلمة "الصِّديقون"، أي: هل نقول: "والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصِّديقون" ونقف، ثم نقول: "والشهداء عند ربهم"؟ أي: هل الشهداء مبتدأ أم معطوفة على الصِّديقون؟

أهمية الإيمان في وقت الأزمات

بدايةً " والذين آمنوا بالله ورسله " جملة: "آمنوا بالله ورسله" تكررت كثيرًا في السورة، وأول عتاب وأول أمرٍ في السورة بعد معرفة الله: " آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ "، ثم العتاب على عدم الإيمان: " وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ".

تجد قضية الإيمان تكررت في السورة، حتى الجنة: " سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ "، **تكرار كلمة الإيمان**.

تكلمنا في المجلس الأول عن لماذا مسألة تكرار الإيمان في وقت الأزمات، لماذا معنى الإيمان دائمًا يتكرر مع أنهم مؤمنين؟ لماذا مع الأزمات يتكرر الإيمان؟

نحن قلنا أنه مثل تفسيرها في بداية سورة محمد –صلى الله عليه وسلم–: " الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ " لماذا تكرار الإيمان وهم

آمنوا بالفعل؟ " وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا " قلنا أن تكرار الإيمان بسبب أنه مع كل مَطلبٍ يُطلَب منهم ومع كل موقف يحدث مطلوبٌ منهم إيمانٌ مُعيَّن،

أي: هناك إيمانٌ عام فنحن بالفعل مؤمنون بالله ورسله، لكن مع كل أزمة هناك معنى إيماني يجب أن يكون موجودًا، وعندما تُحققه فكأنك حقَّقت الإيمان المطلوب في هذا الموقف.

في صلح الحديبية كل الصحابة مؤمنون، أعلى شخص حقَّق الإيمان المطلوب منه هو أبو بكر الصديق، كان أعلى شخص حقَّق الإيمان المطلوب منه في هذه اللحظة، كلهم مؤمنون، لكن الذي حقق المطلوب منه هو سيدنا أبو بكر الصديق.

فالمقصود هنا بكلمة "آمِنوا" في الأزمات أي: تحقيق المعنى المطلوب في الأزمة، ما هو؟ هل هو اليقين؟

عندما قال ربنا في غزوة الأحزاب في سورة الأحزاب: " وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا " [الأحزاب]الإيمان هنا أنه عندما تحدُث هذه الأزمة تقول: " قالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا "[الأحزاب] **هذا هو الإيمان المطلوب في هذا الوقت وفي هذه الأزمة، إيمانٌ مُعيَّن، إيمانٌ خاص.**

إذًا الإيمان في الأزمة **يكون بالبذل، يكون باليقين...**

مثل: الكلمة الإيمانية التي كانت مطلوبة من الصحابة أن يقولوها عندما سمعوا أبا سفيان يقول: (لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم)، ماذا كانت الكلمة الإيمانية المطلوب منهم قولها؟ هم كلهم مؤمنون، كان مطلوب أن يقولوا ماذا؟ الله مولانا ولا مولى لكم... الله أعلى وأعلم.

إذًا هناك إيمانٌ مُعيَّن وكلمات تقال في الأزمات، هذا هو المطلوب.

فلو قلنا: "إن المصدقين والمصدقات" مع كلمة "آمنوا بالله ورسله"، أو بقراءتنا: "إن المصَّدقين والمصَّدقات" أي: إن الذين يبذلون أموالهم وأنفسهم في وقت الأزمات أولئك هم المؤمنون حقًّا بالله ورسله، بل أولئك هم الصِّديقون، أُعيدها مرة أخرى:

إن الذين يبذلون أموالهم وأنفسهم في وقت الأزمات أولئك هم المؤمنون حقًّا بالله ورسله، بل أولئك هم الصِّديقون.

" وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ " أي: في هذا الموقف، "أولئك هم الصديقون" الصديقون مثل: الصِّديق أبو بكر في صلح الحديبية، ظل مُصدِّقًا حتى لو مسح النبي —صلى الله عليه وسلم- بيده كلمة رسول الله، حتى لو مسح النبي بيده كلمة الرحمن الرحيم، هو مُصدِّق حتى عندما قال له النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم سيذهبون لعمل عمرة، وذهبوا ولم يقوموا بعمل عمرة، هو ما زال مُصدِّقًا، كيف ذلك!سيدنا أبو بكر الصديق ظل يُصدِّق.

نحن انتهينا من آية "إن المصَّدقين والمصَّدقات"، و "إن المصَدقين والمصَدقات" على قراءة ابن كثير ورواية أبي بكر عن عاصم.

الآية التي بعدها: " وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ " تحديدًا في هذا الموقف، وظل إيمانهم ثابتًا مع كل المواقف، "ومابدلوا تبديلًا"، هؤلاء يصلون لمرحلة: "أولئك هم الصِّدِّيقون".

الآية تُقرَأ إما بالوقف على الصِّدِّيقون، وإما بالعطف: "الصِّدِّيقون والشهداء"، نفسرها في البداية على الوقف "وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ " ونقف، وبعد ذلك نقول" وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ".

والذي اختار هذا الوقف من السلف ابن مسعود ومجاهد -رضي الله عنهما-، والذي اختار العطف من السلف- ابن عباس والضحَّاك وغيرهم كثير من المفسرين، لكن أغلب المفسرين رجَّح الوقف، مثل: الطبري وابن القيم الذي قام بعمل بحث طويل وغيرهم.

الشاهد أننا سنفسر الآية على القولين:

على الوقف: " وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ " أي: الذين ظل إيمانهم ثابتًا في كل المواقف، بل بذلوا أموالهم وأنفسهم في الأزمات"أولئك هم الصديقون" لماذا أتت بصيغة المبالغة؟ لأنه ظل مُصدِّقًا مع اختلال الأمور من حوله، لأنه ظل يحافظ على اليقين والصدق في نصرة الدين مع أن الأمور

حوله تقول عكس ذلك، هذا اسمه **صِدّيق، الذي يظل مُصدِّقًا ومُوقنًا بوعد الله رغم الظروف المحيطة التي تقول عكس ذلك**، هذا صِدّيق.

إذًا " وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ " وتقف.

بل هناك صنف أعلى من كل هؤلاء بذل نفسه ومات لنصرة الدين في وقت الأزمة: "والشهداء" مثل أنس بن النضر، "من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه" أنس بن النضر وأصحابه الذين استشهدوا في أحد.

" وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ " هؤلاء شيء مختلف جدًّا، " لَهُمْ أَجْرُهُمْ " أي: أجر خاص بهم، " وَنُورُهُمْ " أي: نور خاص بهم.

نحن قلنا أن السورة كلها مليئة بالنور، وهناك نور للمؤمنين يوم القيامة: " يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ " قلنا: أي: يسعى النور على حسب أعمالهم، في نفس السورة يقول لك أن الشهداء لهم نور مخصوص تمامًا غير بقية الناس كلها.

" وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ " أي: أجر خاص بهم، " وَنُورُهُمْ " نور خاص بهم عند ربهم.

والدرجات بين المؤمنين واضحة في السورة، وأكثر آية واضحة في مسألة أن هناك درجات بين المؤمنين آية ماذا؟ الآية التي تقول: " لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً "، انتبه لمسألة الدرجات هذه؛ لأنها موجودة معنا كثيرًا في السورة، "" وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ونورهم".

الصنف الأخير: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ".

أيهما أفضل؟ الصّدّيق أم الشهيد؟

الذي يقول بهذا القول (الوقف) يقول أن الشهداء هنا أعلى من الصِّدِّيقين، مع أن كثيرًا من المفسرين قال: الصِّدِّيقون أعلى، الصدِّيقون أعلى بدليل أن الله قدَّمهم في آية النساء: " فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ "[النساء] والنبي –صلى الله عليه وسلم– قال عندما اهتز بهم الجبل: (اثبت أُحُد فما عليك إلا نبي أوصِدِّيق أو شهيد)[5]، قدَّم الصِّدِّيق على الشهيد، وترتيب الخلفاء: الصِّدِّيق، ثم ثلاثة شهداء: عمر، وعثمان، وعلي، الثلاثة شهداء، أبو بكر لم يُقتَل، فكان الصِّديق ثم الثلاثة شهداء.

إذًا أغلب الناس على أن الصِّدِّيق أفضل، الصِّدِّيق إطلاقًا في القرآن والسنة أفضل، إنما الذي قال بهذا المعنى قال: الصِّدِّيق هنا ليس المقصود به الصِّدِّيق أبو بكر، بل كل المؤمنين الذين آمنوا في وقت الأزمات.

هل يُمكِن أن يكون الشهيد صِدِّيقًا؟ نعم بالطبع،

من الممكن للشهيد أن يجمع بين الاثنين، وقيل أن المنزلتين جُمعتا للنبي –صلى الله عليه وسلم–، الصِّدِّيق أبو بكر، وثلاثة من الخلفاء شهداء، وجُمع بين المنزلتين للنبي –صلى الله عليه وسلم–، هذا على قول أن النبي –صلى الله عليه وسلم– مات بأثر السم؛ فنال الشهادة، النبي –صلى الله عليه وسلم– مات بأثر السم الذي وضعته المرأة اليهودية في الشاة في خيبر، وربنا –سبحانه وتعالى– أوقف أثر السم ثلاث سنوات، ومات النبي –صلى الله عليه وسلم– بأثر هذا السم.

بعض الناس هنا قال: الشهداء ليس المقصود بهم الذي يموت في المعركة، من أجل أن يخرج من السؤال الذي سألتموه: كيف الشهيد هنا أعلى من الصِّدِّيق؟ قال: الشهداء المقصود بهم هنا الأنبياء، وقال: المقصود بهم الشهيد على أمته " وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ". [النحل]

ولفظ الشهيد في القرآن يسمونه لفظًا مشتركًا، أي: يأتي بمعانٍ كثيرة، الشهيد في القرآن جاء وصفًا للنبي –صلى الله عليه وسلم– أنه شهيد وكذلك الأنبياء على أممهم، وجاء وصفًا لكل المؤمنين: " لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ "[البقرة]، إذًا كل المؤمنين سيشهدون، لأننا نملك قرآنًا سنشهد لسيدنا نوح أنه بلَّغ، نحن شهداء على كل الناس، وأيضًا الشهيد في المعركة.

[5] صحيح البخاري

قالوا: طالما هو لفظ مُشترَك، إذًا فالذي يُرجِّح هو السياق، فعندما جاء الشهيد هنا أعلى من الصِّدِّيق فمن أجل أن يخرجوا من هذا الجزء قال: من الممكن أن يكون المقصود الأنبياء، ومن الممكن أن يكون أن كل مؤمنٍ بدأ بمرحلة الشهادة أنه سيشهد على الأمم السابقة.

من أجمل ما قرأت كلمة جميلة جدًّا يقول لك: كلمة استَشهد فلان أو استُشهد فلان، يقول لك: **استَشهد أي: طلب الشهادة**، قالوا: ليس فقط أنه يريد أن يكون شهيدًا، بل يريد أن يَشهد على أمته وعلى الأمم كلها، لكن لن يُسمَح له أن يقول شهادته إلا بعدما يُثْبِت أنه صادق، ولن يُثْبِت ذلك إلا عندما يموت في سبيل الله.

نكرر مرة أخرى، كلمة استشهد ماذا تعني لغةً؟ أي: الوسيلة لطلب الشهادة، كأنه يقول: يارب أنا أريد أن أَشهد على الأمة التي أعيش بينها الذين هم مُقصِّرُون، أنا أريد أن أَشهد، (اللهم إني أبرأ إليك مما فعل هؤلاء)-أي: الكفار- (وأعتذر إليك مما فعل هؤلاء)[6] -أي: المسلمون-، يريد أن يكون له مقام الشهادة يوم القيامة، فكأنه لن يُسمَح له بهذا المقام إلا عندما يكون صادقًا، ولن يظهر صدقه إلا عندما يموت في سبيل الله.

القول الثاني: أن الواو هذه واو العطف " وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ "، فكأن ربنا يقول: **أن الذي يَثبُت في وقت الأزمات نوعان من الناس**، بعضهم قال: "الصِّدِّيقين والشهداء"، نوعان: **الصِّدِّيق** أي: الذي ثَبَت وأيقن في وقت الأزمة وظل ثابتًا ولم يمت، و**الشهيد** الذي ظل ثابتًا في الأزمة ومات.

في غزوة أُحد على سبيل المثال أنس بن النضر نال الشهادة، والذي عاش بعد أُحد وظل ثابتًا فهو صدّيق؛ لأنه مرّت عليه الأزمة وهو ما زال ثابتًا، ولهذا قالوا أنَّ الصدّيق هُنا اعلى من الشهادة، لماذا؟

الشهيد مات واستراح فهو بذلَ ومات، أما الذي بقي على قيد الحياة فقد عايش الأزمة وتعب، واضح؟

---

[6] أنَّ عَمَّهُ غَابَ عن بَدْرٍ، فَقالَ: غِبْتُ عن أوَّلِ قِتَالِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لَئِنْ أشْهَدَنِي اللَّهُ مع النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ ما أُجِدُّ، فَلَقِيَ يَومَ أُحُدٍ، فَهُزِمَ النَّاسُ، فَقالَ: اللَّهُمَّ إنِّي أعْتَذِرُ إلَيْكَ ممَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، يَعْنِي المسْلِمِينَ وأَبْرَأُ إلَيْكَ ممَّا جَاءَ به المشْرِكُونَ فَتَقَدَّمَ بسَيْفِهِ فَلَقِيَ سَعْدَ بنَ مُعَاذٍ، فَقالَ: أيْنَ يا سَعْدُ، إنِّي أجِدُ رِيحَ الجَنَّةِ دُونَ أُحُدٍ، فَمَضَى فَقُتِلَ، فَما عُرِفَ حتَّى عَرَفَتْهُ أُخْتُهُ بشَامَةٍ أوْ ببَنَانِهِ، وبِهِ بضْعٌ وثَمَانُونَ مِن طَعْنَةٍ وضَرْبَةٍ ورَمْيَةٍ بسَهْمٍ.

الراوي : أنس بن مالك | المحدث : البخاري | المصدر : صحيح البخاري

أنس بن النضر لم يشعر بمرارة كلمة أبي سفيان: (لنا العُزى ولا عُزى لكم)، لم يشعر بها، ولا عندما عاد المسلمون إلى المدينة وقال لهم المنافقون: (ألم نقل لكم لا تدّعوا القوة وأنّكم مجاهدون ومقاتلون، قُلنا لكم أنكم لستم أهل للجهاد واقعدوا بجانبنا، لو فعلتم لما متُم، ولبقيتم على قيد الحياة، قُلنا لكم اسمعوا كلام شيخنا عبدالله بن سلول فقد قال لنا: لا تقاتلوا فأطعناه، لو أنكم أطعتموه لم يكن ليحدث هذا ولما مات من مات.)

مرارة الثبات عند لوم الصديق، الثبات في السماع لهذا الكلام من المنافقين يحتاج إلى أشخاص صدّيقين.

وبعضهم قال كي يخرج من هذه الدائرة كلها: هم **الصدّيقون في الدنيا والشهداء على الناس يوم القيامة**، أي أنّ هؤلاء صنفٌ واحد، الصدّيقون والشهداء هم صنف واحد، وهذا الذي اختار واو العطف وجمع بينهم وخرج من دائرة الإشكال.

هذه كلها معانٍ ممكنة، وهذا من جمال كلام الله، تفسيره بكل ذلك، العلماء مع اختلاف بلدانهم يفتح الله عليهم ومع اختلاف إيمانهم كل منهم يصل إلى معنى مُعين فتزداد وتتسع معاني القرآن.

مرة أخرى، من أجمل مَن عمل تجميعًا سريعًا جدًا: الإمام ابن عطية في (المحرر الوجيز) وابن جُزَي الكلبي في (تفسير التفسير)، تجميع رائع، لو أنك أثناء قراءتك وضعت أسهُم لكنه لم يفعل ذلك، ***قال هناك من الناس مَن لم يعطف قالوا الواو ليست عطف واعتبروا الشهداء مبتدأ، وهناك من قال أنّ الواو عطف والشهداء معطوف.***

الذين قالوا بالوقف قالوا: الشهداء أعلى من الصديقين، ولكن هذا يعارض بعض النصوص فقالوا: المقصود بالشهداء هنا الأنبياء الذين يشهدوا على أممهم.

الذين قالوا بالوصل وأن الواو للعطف، قالوا: هؤلاء صنف واحد، هم صدّيقون في الدنياوشهداء على الناس في الآخرة، وبعضهم قال أن هؤلاء هم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، فالصدّيق هو من ينتظر، والذي قضى نحبه هو الشهيد.

"وَالَّذينَ كَفَروا وَكَذَّبوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصحابُ الجَحيمِ"

انتبه: "وَالَّذينَ كَفَروا (وَكَذَّبوا بِآياتِنا)أولئِكَ أَصحابُ الجَحيمِ"، مهما كان هناك استضعاف وأزمات فإنّ آيات الله واضحة؛ فليس لأحد أن يتحجج ويقول: لم نكن نعلم الحق من الباطل، وأنّ المنافقين كانوا يضغطون علينا ولم نكن نستطيع التحكُّم في هذا الباطل... أبدًا.

"وَالَّذينَ كَفَروا وَكَذَّبوا بِآياتِنا"، "آياتنا" بصيغة الجمع، آيات، آيات الله واضحة، لا أحد له العُذر للكفر أبدًا، ولا يتحجج ويقول: وجدتُ الكفار قد هزموا المؤمنين فشككت أن الكفار على الحق طالما أن المؤمنين مُستضعفين، ووجدت أخلاق المؤمنين سيئة ويفعلون المعاصي، والكفار متقدمين في الدنيا، كل هذا لا يصح وليس بعُذر، آيات الله الواضحة ستظل واضحة! والذي جاءكم قد جاءكم عن بيّنة! "وَالَّذينَ كَفَروا وَكَذَّبوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصحابُ الجَحيمِ"

" اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا..."الثانية

الأولى كانت: "اعلَموا أَنَّ اللَّهَ يُحيِي الأَرضَ بَعدَ مَوتِها قَد بَيَّنّا لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُم تَعقِلونَ"

الثانية (اعلَموا)، هُنا الآيات من بداية السورة تتحدث في قضية الإيمان والإنفاق، الكلام عن الجهاد والقتال جاء كتلميح فقط في آية واحدة، جاء عند قول الله عز وجل: "لا يَستَوي مِنكُم مَن أَنفَقَ مِن قَبلِ الفَتحِ وَقاتَلَ" كلمة فقط، **والمقصود الأصلي في الإنفاق هو الإنفاق في سبيل الله لنُصرة دين الله، ليس مجرد الإنفاق على المساكين.**

بدأ الكلام يكون أكثر وضوحًا عن الجهاد، خاصة على قول أنّك تقف على الصدّيقين، وأنّ الشهداء لهم أجر مخصوص،بدأت الآيات تتكلم عن منزلة أعلى من منزلة الإنفاق، منزلة الذي يقاتل ويموت، ليس فقط يقاتل، أي "لا يَستَوي مِنكُم مَن أَنفَقَ مِن قَبلِ الفَتحِ" لم يقل وقُتل لكن ماذا قال؟ "وَقاتل"

هنا بدأتَ تصل لمنزلة أعلى ، منزلة مَن أنفق ماله وجاهد وقُتل، فهذا طلب عالي المنزلة وطالما أنه طلب عالي المنزلة،فهناك موانع نفسية ضد بذل النفس في سبيل الله.

القرآن يعالج النفوس؛ بمعنى أنه لو كان القرآن يخاطب العقول لكان انتهى في ثلاث صفحات! مثلًا: آمنوا بالله وجاهدوا، وافعلوا كذا وانتهوا عن كذا، وانتبهوا هناك جزاء هو جنة أو نار، ولانتهى الأمر عند هذا الحد.

لكن القرآن كتاب هُدى، يخاطب العقول و الوجدان والمشاعر، يخاطبك بصفتك آدميّ.

قبل أن يقول الله عز وجل "آمِنُوا" في الآية السابعة من سورة الحديد، نجد ست آيات متصلة عن معرفة الله حتى يَقوى الإيمان في الأزمة.

فهنا عندما قال الله عز وجل "والشُّهداء عِند رِبِهِمْ لهُمْ أجْرُهُمْ ونُورُهُمْ".. يوجد موانع نفسية ضد البذل، فتكلم الله عز وجل عن أمرين:

- عن الدنيا و الآخرة

- وعن القدر "ما أصاب مِن مُّصِيبةٍ فِي الأرْضِ ولا فِي أنفُسِكُمْ إلاَّ فِي كِتابٍ من قبْلِ أن نَّبْرأها إنَّ ذلِك علىالله يسِيرٌ* لِكيْلا تأْسوْا على ما فاتكم ولا تفْرحُوا بِما آتاكُمْ والله لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فخُور"

أخبرك عن حقارة الدنيا وعن مشهد القدر.

فبدأ **أولًا**: لِمَ تمتنعون عن بذل أنفسكم و أموالكم ؟

"اعلَموا أَنَّمَا الحَياةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَينَكُموَتَكاثُرٌ فِي الأَموالِ وَالأَولادِ..."

أي اعلموا أن ما يمنعكم عن القتال في سبيل الله، إنما هو حياة دنيا أو ضياع لحياة دنيا، فكل ما في الحياة الدنيا إنما هو" الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَينَكُموَتَكاثُرٌ فِي الأَموالِ وَالأَولادِ "

جاءت آية سورة الحديد **بخمس أوصاف للدنيا**، أكثر وصف للدنيا في القرآن جاء في هذه الآية،

فقد تأتي في آية"لعبٌ و لهو"

وقد يأتي التكاثر وحده "ألهاكم التكاثر"

يأتي " كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ " الفخر بالآباء في سورة البقرة في آيات الحج.

لكن الخمس أوصاف للدنيا لم تأتِ مجتمعة إلا هنا، أكبر تحقير للدنيا متواصل جاء هنا! لماذا؟

لأن المطلوب عالي المنزلة! **المطلوب ((الشهادة))!**

ما الفرق بين اللعب واللهو؟

"اعلَموا أَنَّمَا الحَياةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُر بَينَكُم وَتَكاثُرٌ فِي الأَموالِ وَالأَولادِ..."

اللعب هذا للأطفال، **هذا اللعب بذل للمجهود بدون فائدة**، مثلًا تقوم بعمل لمدة ساعتين، وبعد مرور ساعتين،لايوجد أي إنجاز، فأنت تبذل مجهودًا بلا فائدة!

من يشاهد التلفاز، ماذا يفعل؟ يلهو

من يبذل مجهود بلا فائدة؟ هذا لعب

فقالوا: اللعب يخص الأبدان أكثر واللهو يخص النفوس،

وقالوا: اللعب ما لا فائدة فيه واللهو ما يشغلك عن الأهم.

هذه المعاني محاولات للتفريق بينهما، ولكن الدنيا فيها المعنيان.

الآيات تطلب منك منذ البداية: "آمنُوا بِاللَّهِ ورُسُلِهِ" ثم "إِنّ المصّدّقين"

الآيات تطلب بذلًا! فكأن هنا النموذج الآخر، فالله يقول لك:عليك أن تعرف أن أغلب الناس يبذل،لكن فيم يبذل؟ في لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر.

يقول النبي عليه الصلاة والسلام: (كل الناس يغدو) -أي: أن كل الناس يعمل-، ولكن ماذا يعمل؟(كلُّ الناسِ يغدو ، فبائعٌ نفسَه فمُعْتِقُها أو مُوبِقُها)[7]، أي:الإنسان يعمل فإما يعتق نفسه من النار بعمله، أو يُدخلها النار!

كل الناس تغدو، كل الناس تحلم، كل الناس تبكي، كل الناس تتمنى! "لقدْ خلقْنا الْإِنسان فِي كبدٍ" [البلد] في كل الأحوال حياة الإنسان هي كبد، **فإما أن تجعل هذا الكبد في نصرة دين الله، وإما أن يكون بلا فائدة.**

الله قال في حديثه عن أهل الجنة قولهم "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهب عنَّا الْحزن"[فاطر]؛ فكل الناس تحزن، **لكن ما سبب حزنك أنت؟!**

"لعِبٌ ولهْوٌ وزِينةٌ".. أغلب انشغال الناس يكون بالمظاهر الخارجية، في الحقيقة هو يعمل الكثير، ولكن ليس له فائدة، يريد أن يلهو، يريد أن ينسى الدار الآخرة.

اللهو: هو الانشغال عما هو أولى؛ لذا عندما انشغل النبي -صلى الله عليه وسلم- برؤساء قريش عن ابن أم مكتوم، انشغل عما هو أولى، فقال الله له معاتبًا: "فأنت عنْهُ تلهَّىٰ"[عبس]، يريدون أن يُلهوك عن الأوْلى بالدعوة.

[7] أخرجه مسلم

فأغلب مجهود الناس لعب، أغلب الناس لا يريد التفكير في الآخرة، أغلب مجهود الناس منصرف إلى التزين،هذه الزينة شيء خارجي،لذلك بعض المفسرين اختلفوا في زينة المرأة الظاهرة وما يجوز و ما لا يجوز؛ فقالوا الوجه والكفين في الزينة، بعضهم قال الزينة كل ما هو خارجي، مثل الذهب للزينة الخارجية، فالزينة لا تكون من داخل الإنسان إنما من خارجه، أي: تكون خارجية، "إِنَّا جعلْنا ما على الْأَرْض زينة لها"[الكهف]، *فالأرض نفسها ليست مزينة إنما وضع الله فيها ما يزينها*.

أغلب هموم الناس منصرف إلى التزين، ما غرضه من التزين؟ ما الدافع؟ لكي يتفاخر! "وتفاخُرٌ بينكُمْ وتكاثُرٌ".

بعضهم قال: **التفاخر في الكيف والتكاثر في الكمّ**.. "أنا أكثرُ منك مالًا" [الكهف]

((التكاثر: استشعار الأكثرية عند المقارنة، والتفاخر: استشعار الأفضلية عند المقارنة)).

- فالإنسان مشغول بنفسه أولًا باللعب واللهو،
- ثم الزينة بالوسط –الزينة ما بين نفسه و بين الناس–،
- ثم تفاخر وتكاثر، وهنا بدأ ينشغل بماذا؟ بالناس! صيغة التفاعل "وتفاخُرٌ بيْنكُمْ وتكاثُرٌ في الْأَمْوالِ والْأَوْلادِ"، فهو يريد أن يصبح أحسن من الناس.

قيل: التفاخر بالأنساب، والتكاثر في الأموال والأولاد؛ التفاخر في النسب فيقول أنا من قبيلةٍ أشرف من قبيلتك!

ذكرنا حديث النبي صلى الله عليه وسلم (من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه)[8]

الشاهد أنَّ هذه ماهية الدنيا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَلَا إِنَّ الدُّنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها، إِلَّا ذِكرَ اللهِ تعالى، وما والاهُ، وعالِمًا ومُتعلِّمًا)[9]

[8] سبق تخريجه

[9] الراوي : أبو هريرة | المحدث : شعيب الأرناؤوط | المصدر : تخريج رياض الصالحين

الصفحة أو الرقم: 478 | خلاصة حكم المحدث : [حسن]

إذًا أغلب ما في الدنيا يشغل الإنسان عن مراد الله عزَّ وجل، "كَمَثَلِ غَيثٍ أَعجَبَ الكُفّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَراهُ مُصفَرًّا ثُمَّ يَكونُ حُطامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذابٌ شَديدٌ وَمَغفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضوانٌ"

مثال الدنيا في سورة الحديد

كل آية من الآيات التي تتحدث عن الدنيا في القرآن جاء تفي موضع مناسب للسياق الخاص بها، فعندما ضرب الله المثل أنَّ الحياة الدنيا كالماء الذي نزل من السماء، وفي النهاية "فأصبح هشيمًا تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرًا" كما جاء في سورة الكهف، أو المثل في سورة يونس "حَتّى إِذا أَخَذَتِ الأَرضُ زُخرُفَها وَازَّيَّنَت وَظَنَّ أَهلُها أَنَّهُم قادِرونَ عَلَيها أَتاها أَمرُنا لَيلًا أَو نَهارًا فَجَعَلناها حَصيدًا كَأَن لَم تَغنَ بِالأَمسِ"، أمثلة الدنيا في القرآن والتفصيل فيها متناسب مع السياق.

كما ذكرنا هُنا-في سورة الحديد- أكثر تفصيل للتقبيح في الدنيا بخمس مواصفات.

ثم قال تعالى "كمثلِ غيْثٍ"، وأيضًا في آية الكهف "وَاضرِب لَهُم مَثَلَ الحَياةِ الدُّنيا كَماءٍ أَنزَلناهُ مِنَ السَّماءِ فَاختَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرضِ فَأَصبَحَ هَشيمًا"، فالمياه كانت تنزل وتختلط بالنبات ثم انتقل مباشرةً إلى مرحلة الهشيم، لأنها كانت بعد قصة صاحب الجنتين التي تقول له مهما كان معك -وإن كانوا جنتين- فإن نهايتهما هشيم.

أما هُنا في سورة الحديد، فالتركيز على كلمة "كَمَثَلِ غَيثٍ أَعجَبَ الكُفّارَ".. **"أعجب الكفار" هذه هي التي منعته من الذهاب للجهاد وظلَّ قاعدًا!** "وَمَساكِنُ تَرضَونَها"[التوبة].. ظل قاعدًا لا يريد الذهاب للجهاد! "إِنّا هاهُنا قاعِدونَ"[المائدة].. كغزوة تبوك ظلَّ منتظرًا الحصاد "كَمَثَلِ غَيثٍ أَعجَبَ الكُفّارَ" النبات ظهر وهو قعد بجانبه.

بعض المفسرين قالوا: **الكفار هُنا بمعنى الزرّاع**، والكافر لغة هو الزارع، لأنه يَكفر البذرة أي يُغطيها، وهذا يفيد أن الزارع يفهم ويجيد عمله فهو ينتقي شيئًا حسنًا، ويريد أناسًا مختصّين يفهمون العمل ويجيدونه، كما قال الله تعالى: "يَعلَمونَ ظاهِرًا مِنَ الحَياةِ الدُّنيا"[الروم]، تجدهُم في غاية الانتباه والتركيز في الحياة الدنيا! وكما قال تعالى: "وَمِنَ النّاسِ مَن يُعجِبُكَ قَولُهُ فِي الحَياةِ الدُّنيا"[البقرة]، قال المفسرون "يُعجِبُكَ قَولُهُ فِي الحَياةِ الدُّنيا" أي: عندما يتحدث عن الدنيا يكون بارعًا، أما في الآخرة فلا يفقه شيئًا.

الشاهد "كَمَثَلِ غَيثٍ أَعجَبَ الكُفّارَ" بدأت مباشرةً بمرحلة النبات، "أَعجَبَ الكُفّارَ نَباتُهُ"، وفي مرحلة الموت لم يقفز فورًا، فقال تعالى: "ثُمَّ يَهيجُ فَتَراهُ مُصفَرًّا ثُمَّ يَكونُ حُطامًا"، أغلب المفسرين "ثُمَّ يَهيجُ فَتَراهُ مُصفَرًّا" قالوا: أي يُصبح يابسًا، كثير من المحققين قال: مُصفرًّا أي أنها المرحلة التي يكون فيها النبات أخضر ثم يبدأ يصفرّ سوف يموت، أكثر مرحلة تُتعب قلب الذي أُعجِب بالنبات، تُتعبه جدًا، عندما تبدأ الدنيا تصفرّ، **هي لم تُمت بعد لكنها على وشك الموت**، "وَحيلَ بَينَهُم وَبَينَ ما يَشتَهونَ" [سبأ]الدنيا بدأت تزول منه، فأتى بتصوير مُبهر، الدنيا وهي في قمة الزخرفة "أَعجَبَ الكُفّارَ نَباتُهُ" وأتى بالتفصيل والدنيا تنسحب منه! ثم قال له وما النهاية؟ ما نهاية كُل هذا؟ "ثُمَّ يَكونُ حُطامًا" مثلما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم (ما لي وللدنيا إنما مثلي ومثلُ الدُّنيا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرةٍ ثم راح وتركها)[10]، (ثم راح وتركها)! تمامًا مثل "ثُمَّ يَكونُ حُطامًا"

ثم العاقبة والحساب؛ "وَفِي الآخِرَةِ عَذابٌ" وبدَأت بالعذاب لأن أغلب الناس خدَعتهم الدنيا! "وَمَغفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضوانٌ وَمَا الحَياةُ الدُّنيا" على حقيقتها "إِلّا مَتاعُ الغُرورِ"،

ما المقصود بمتاع الغرور؟ بعضهم قال: أي متاع للمغرور فقط؛ أي لا يستمتع بها وبتفاصيلها إلا المغرور، أما الذي لا يُخدَع فيعلم أنها مزرعة للآخرة، إذًا "إِلّا مَتاعُ الغُرورِ" هي للمخدوع المضحوك عليه.

بعضهم قال "مَتاعُ الغُرورِ" أي: متاع وهمي، كالذي يصنع أمتعة من زجاج وعندما يُسافر تنكسر منه، متاع لا يبقى معه طويلًا، بعضهم قال: هذا المتاع كحقيبة المسافر.. أمتعته، الأمتعة هي الحقائب، لو تعاملت مع الأمتعة أنها ليست مجرد وسيلة وإنما هي غاية فلن تُفلح، أمّا الذي يفهم أنَّ الدنيا هي مجرد حصاد، كما قال سيدنا إبراهيم، قال النبي صلى الله عليه وسلم -عندما التقى بسيدنا إبراهيم عليه السلام في الإسراء والمعراج- قال له: (يا محمَّد، أقرئ أمَّتك مني السلام وأخبرهم أنَّ الجنة طيبةُ التُّربة عذبةُ الماء، وأنَّها قيعانٌ، وأنَّ غِراسها سُبحان الله والحمدُ لله ولا إله إلَّا الله والله أكبرُ)[11]، فأثناء وجودك

---

[10] نامَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ علَى حصيرٍ فقامَ وقد أثَّرَ في جنبِهِ فقلنا يا رسولَ اللَّهِ لوِ اتَّخَذنا لَكَ وطاءً فقالَ ما لي وما للدُّنيا ، ما أنا في الدُّنيا إلَّا كراكبٍ استَظلَّ تحتَ شجرةٍ ثمَّ راحَ وتركَها.

الراوي : عبدالله بن مسعود | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح الترمذي

الصفحة أو الرقم: 2377 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

[11] الراوي : عبدالله بن مسعود | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح الترمذي | الصفحة أو الرقم : 3462 | خلاصة حكم المحدث : حسن

في الدنيا أنت تَحصُد، كما قال الله تعالى في آخر سورة الروم: "فَلِأَنفُسِهِم يَمهَدونَ"، أهل الإيمان يمهدون -أي يُمهّد لنفسه في الجنة-، كل عمل يقوم به يُجهز قبره، أنت مثلًا صليتَ الفجر في جماعة فهذا نور لك تضعه في قبرك، أنت تُهيئ مكانك في الجنة، أنت منتبه!أنا أريد قصرًا.. فاليوم سأصلي اثنتا عشرة ركعة! أنت تُهيئ لنفسك في القبر وفي الجنة، تكون في منتهى التركيز والانتباه، أما الذي يكون همّه متاعه في هذه الدنيا فقط فهو مخدوع!

"كَمَثَلِ غَيثٍ أَعجَبَ الكُفّارَ"وقيل: "أعجب الكفار" - ليس الزرّاع- أي لا يُعجَب بالدنيا إلا الكافر، قد يقال أن هناك من أهل الإيمان مَن يُعجَب بالدنيا، فنقول هؤلاء يكون فيهم صفة من صفات الكفار، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أنّ هناك مؤمن من الممكن أن يخلف وعده، ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم أنّه هناك صفة من صفات المنافقين (ثلاث من كنَّ فيه كان منافقا خالصًا)[12] وفي رواية (أربع من كن فيه)[13]، فإذا كانت فيه خصلة كان فيه خصلة من النفاق، الإعجاب بالدنيا والانبهار بها من صفات الكفار، إذًا فإنّ الذي ينبهر بالدنيا، فيه صفة من صفات مَن؟ من صفات الكفار، -هذا الكلام صعب على النفس، وإنما أنا ناقل، أي أن التقريع ينالني كما ينالكم تمامًا، فالحديث للجميع-."وَمَا الحَيَاةُ الدُّنيا إِلّا مَتاعُ الغُرورِ"

حتى لا أُطيل عليكم، كُنت أودُّ أن نتحدث عن مشهد القدر، لكن سنتحدث عنه المرة القادمة.

سابقوا .. سارعوا!

"سابِقوا إِلى مَغفِرَةٍ مِن رَبِّكُم وَجَنَّةٍ".. "سابِقوا" لماذا هُنا "سابِقوا" بينما في آلِ عمران"سارِعوا"؟

لماذا أتت هنا سابقوا؟

السباق ماذا يكون فيه؟ منافسة، هُناك سباق، **كما أنَّ أهل الدنيا يتنافسون نحنُ أيضًا لنا تنافُسنا**، هم يعيشون في تفاخُر وتكاثر بين بعضهم البعض، ونحن نتسابق في الدار الآخرة، لن تستطيع أن تصل

[12] الراوي : - | المحدث : ابن حزم | المصدر : المحلى-الصفحة أو الرقم: 202/11 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

[13] صحيح مسلم

لمرحلة السباق،ولن تستطيع الجري إلا عندما تعلم "أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ"! إذًا كلمة (سابِقوا) أتت في وقتها، الذي عاشَ مع آية "اعلَموا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ" فعندما يسمع كلمة "سابِقوا" يتجه فورًا لتنفيذ ما يُؤمر به، ولهذا لا تقُل لأحد "سابِقوا" إلا عندما تقول له "اعلَموا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ" سابِقوا أتت بعد اعلموا، تمامًا كما جاء الأمر بـ "آمِنوا بِاللَّهِ وَرَسولِهِ وَأَنفِقوا"بعد معرفة الله عزوجل.

هذا بالنسبة للسباق بين أهل الإيمان وأهل الدنيا،أما السباق بين أهل الإيمان أنفسهم، نحن ذكرنا أن السورة تتحدث عن الأشياء التي فيها درجات بين أهل الإيمان، كما ذكرنا الآية المشهورة "لا يَستَوي مِنكُم مَن أَنفَقَ مِن قَبلِ الفَتحِ وَقاتَلَ"، **إذًا هناك سباق بين أهل الإيمان أنفسهم، فاسبق!**

أنت من الممكن أن تكون من أهل الإيمان الذين نصروا دين الله وأنفقوا وقاتلوا، وهُناك مؤمن قد سبقك، يقول الله "لا يَستَوي مِنكُم مَن أَنفَقَ مِن قَبلِ الفَتحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذينَ" من الذين ماذا؟ "الَّذينَ أَنفَقوا مِن بَعدُ وَقاتَلوا" لكنَّهم سُبقوا، هناك مَن سبَقهم، فدائمًا سابِق واسبق! والسباق دائمًا يكون في البذل وليس بالأخذ؛ على سبيل المثال أنا أجلس على كُرسي وأنتم تجلسون على الأرض،إذًا فأنا سبقتكم؟ كلا، **السباق يكون في ماذا؟ في البذل.**

"سابِقوا إِلى مَغفِرَةٍ مِن رَبِّكُم وَجَنَّةٍ".. ويجب عليك قبل أن تدخل الجنة أن يكون هناك ماذا؟ (مغفرة) "سابِقوا إِلى مَغفِرَةٍ مِن رَبِّكُم".

النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لن يدخل الجنة أحدكم بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته)[14].

إذًا، "سابِقوا إِلى" لم يقُل سابقوا إلى جنة وإنما قال "سابِقوا إِلى مَغفِرَةٍ مِن رَبِّكُم"وبالتالي للجنة، **أي اسعوا في أسباب المغفرة!**

كيف أُسابق إلى المغفرة؟ المغفرة ليست شيئًا أُسرع اليه، المغفرة هي ماذا؟ أي سابِقوا إلى أسباب المغفرة، **بالبذل الله يغفر الذنوب.**

[14] الراوي : - | المحدث : ابن تيمية | المصدر : الرد على البكري/الصفحة أو الرقم: 461 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

"سابِقوا إِلى مَغفِرَةٍ مِن رَبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرضُها كَعَرضِ السَّماءِ وَالأَرضِ أُعِدَّت لِلَّذينَ آمَنوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ" مَن هُم؟ هُم الذين ذُكروا قبل ثلاث آيات: "وَالَّذينَ آمَنوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ" **مَن هُم؟ الصدّيقين والشهداء.**

"أُعِدَّت لِلَّذينَ آمَنوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذلِكَ فَضلُ اللَّهِ يُؤتيهِ مَن يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضلِ العَظيمِ"

أسألُ الله عزَّ وجل أن يَمُنَّ علينا بالفضل العظيم وأن يجعلنا من السابقين إلى طاعته، وأن يستعملنا لنصرة دينه.

أقولُ قولي هذا وأستغفرُ الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألَّا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.